قراءة سريعة في صفحات التاريخ الممتد

في ديوان ثورة المختار

للشاعر الدكتور الطبيب صلاح عدس

الأستاذ الدكتور

محمـــــد محمـــد الغـــربـــاوي

عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق

أستاذ الأدب والنقد

الملخـــــــص

ينتهي ديوان صلاح عـدس – إلـى شـعر الحركـة، والتمثيـل، والتشخيص، والتجسيد، والتجسيم، طوّف في جنبات الكـون، فقـرأ الحياة بكل ما فيها من وقائع وأخبار وأحـداث، قـديمها وحـديثها، إسلاميها وأسطوريتها، بل وحتى عالميتها.

فتق المعاني النبيلة، ونكأ الجروح الغائرة الإلهية، وداوى في فجـر ينبثق بالنور الهادر بين العبشة والعبشة ليزرع الضوء في صحاري مترامية تكشف ما توارى عن أيمن الحباري، وطالب الدروب فيـه قعقعة السلاح، وبذر الحبوب، وغرس أشجار الغد والأمـل بالثمـار اليانعة التي طالما تطلع إلى قطفها قلوب صادية، وتشوقت لأوراقهـا أجساد عارية.

الكلمات المفتاحية: ديـوان – ثـورة – المختـار – قـراءة – المضامين.

الأستاذ الدكتور

محمـد محمـد الغربـاوي

عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق

أستاذ الأدب والنقد

Abstract

The reform Diwan belongs to the poetry of movement, representation ,diagnosis, illustration and giving concrete expression. It wandered in all corners of the world where it has read the life with its incidents ,news and actions including the past and the modern time whether its Islamic or mythology as well as our secular world and as a result it springs and conveys the noble meanings and opens the deepest and painful wounds and at the same time ,it cures madness in the darkness itself or the aggression of human beings through the expected hope in the dawn in which the light will be emerged once again to be spread in the vast deserts to explore what has been disappeared by the worried eyes which look forward to plain paths ,sowing grain and the tomorrow of hope that is full of fruits to which the broken hearts looked forward to pick it up and the leaves of trees where bare bodies have looked forward to them eagerly.

Keywords : Diwan (collection of poetry)-revolution-The chosen-reading- contexts

Dr.

Mohamed Al-Gharabawy

Department of Literature and Criticism,

Faculty of Arabic Language in Zagazig ,

Al Azhar University, Egypt.

mohamedelgharabawy.25@azhar. edu.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمـــــة

قليل هم أصحاب الأقلام الحقة، الذين يعون معنى الأدب والنقـد إبداعًا وتاريخًا وأحاسيس، في زمان كثر فيه الزيف واخـتلط فيـه الرؤى، وغامت أجواء الحق في دنيا المدعين المثقفين.

ويأتي قلم الدكتور/ صلاح عدس برهانا على بقية العقل وثبـات الفكر ونصرة المظلوم بقلم مبدع، وفكر وهاج، وأسلوب حكيم متزن؟

وقد أخذ على عاتقه كشف الحقائق والأسرار حول غموض الأدب ووضوحه، وإضاءة جواهر الدرر الحقيقية للإبداع والنقد؛ فكثيرًا ما يكشف تجاوزات المدعين، وزيف الجائرين؟ فالزيف لا تجمله الزينة ولا تعلي من قدره؛ وإنما الفرق واضح بين الثرى والثريا، والـدرر والعرر – كما قال القاضي الجرجاني – فشاعرنا بصير بأصول الفن الشعري، عليم بقواعد النقد من جميع مجالاتها النفسـية والتاريخيـة وحتى التشريح الطبي لها.

ويأتي هذا الديوان تتمة لما بدأه من هذه الرؤية البصيرة الناقـدة المحللة لجواهر الأشياء؛ فالأدب الراقي نجوم تتلألأ في سماء الفكـر والتاريخ والحياة، والأدب الزائف لن تقوم لـه قائمـة مهمـا زوَّر المزورون، وروَّج الأفاقون.

وإنني أقرأ هذا الديوان قراءة عاجلة أقدم فيه انطباعات نفس وإحساس شاعر قرأ شاعرا، وأحس بروحه، وترجم فكره وهواجسه، ولذا ستكون القراءة مختلفة غير رتيبة على النسق المعروف في الدراسات التقليدية، فقد تكون مرتبة، أو متناثرة، أو متكررة، لكن يجمعها حس منقد، وألم ممض، وأمل واعد.

المبحث الأول
شـــــارع وديـــــــوان

شاعرنا هو الدكتور/ صلاح يوسف محمد عـــدس مـــن مواليـــد أكتوبر سنة ١٩٤٣م، بإحدى قرى محافظة الدقهلية، تخرج من كليـــة طب القصر العيني سنة ١٩٦٦م، أحب الأدب منذ دراسته للطـــب، وسافر إلى دول عدة عربية وأجنبيـــة، وأتقـــن عـــدة لغـــات منهـــا الإنجليزية، والفرنسية.

كتب عدة كتب أدبية ونقدية في الأدب والنقد العربي والعـــالمي، كما ترجم كثير من الأعمال الأدبية العالمية.

ومن أشهر مؤلفاته:

كتب في الدراسات النقدية والإسلامية:

[١] منظومة الأدب الإسلامي – مكتبة جزيرة الورد.

[٢] شعر دكتور/ مانع سعيد العتيبة – المكتب المصري.

[٣] الحركة الشعرية في السعودية – مكتبة مدبولي.

وله مسرحيات شعرية كثيرة، حاز بها الباحث/ صلاح إبـــراهيم على درجة التخصص الماجستير، من هذه المسرحيات.:

[١] أبو زيد الهلالي سلامة.

[٢] مأساة المعتمد بن عباد.

[٣] البحث – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كما أن له دراسات في التراث الإسلامي، منها: مختصر تفسير ابن كثير، ملامح الإسلام، مختصر السيرة النبوية لابن هشام.

وله ديوانان شعريان: الطريق إلى مكة، ثورة المختار.

ولم يقتصر على الكتابات العربية بل كتب سلسلة ملخصات التراث العالمي، ومنها:

(الأودية – الجمهورية لأفلاطون – الأمير لمكيا فيللي)

وترجم رواية وادي العرائس للكاتبة الأمريكية جاكلين سوزان، ورواية كلودين في باريس للكاتبة الفرنسية كوليت.

وكتب كثير من النقاد عن مسرح وشعر صلاح عدس، منها:

مسرح صلاح عدس الإسلامي – د/ مصطفى أبو طاحون.

وأما الديوان، فهو يحمل عنوا "ثورة المختار" وهو الديوان الثاني بعد "الطريق إلى مكة" فجَل إبداعه في المسرح الشعري، وقد اختار الشاعر عنوان الديوان لقصيدته قبل الأخيرة، وفيها لخص العراك بين الظلم والمظلومين في صوره المتناهية في الحياة الدنيا؛ وأنها كرَّ وفرَّ بين الفاسدين الراكبين عروس الحياة وبين المصلحين المنادين بالحرية والسلام.

والإهداء ينم عن روح طيبة وتوجه مستقيم معتدل رآه في أدباء الأزهر الذين قربوا على الوسطية وفهم الدين والحياة فهما صحيحًا لا سقم فيه؛ وهو بهذا يعكس رؤى نفسه وتوجهه في أدبه وفكره،

فهو وسطي ثائر في وجه الظلم بشتى صوره الذي لا يرضاه دين ولا تقره الإنسانية القويمة

يقع الديوان في مائة وعشرين صفحة من القطع الصغير طبع بمكتبة جزير تلورد بالقاهرة سنة ٢٠٠٠م، ويشمل الديوان على أربع وثلاثين قصيدة غير قصيدة الإهداء.

ودار قصائد الديوان حول التاريخ بشتى صوره، القديم والإسلامي، العالمي، وهو في كل لون ينهل من ذاكرة الأمة وذاكرة الدنيا من تاريخ قديم تمثل في الفراعين وحياتهم وصور من مجتمعهم، وإسلامية متمثلا في قصص القرآن الكريم (أهل الكهف – قصة موسى عليه السلام.

ومن السنة النبوية (صور للصحابة الكرام – مواقف نابضة بالحب والإخلاص.

ولم ينس التاريخ العالمي في الهند وبورما والبندقية.

في تناوله تاريخ مصر الفرعوني رسم الشموخ المصري القديم، ووصف الملوك الحاكمين طوال آلاف السنين ربط عالم يموج بالاضطرابات والهزائم وفي كلها وقف المصري شامخا معتزا بملوك جبابرة يحكمون، ولا يهابون؛ بل عاشوا لحماية الوطن وتقديس ترابه.

وجال في تاريخ العباسيين فترة المستنصر وما حل بالأمة من شدة وعنت، مبينا الفجوة والهوة بين فئه قليلة منعمة في القصور، وسواد أعظم يلهث موتا في الطرقات بغية الحصول على نفاية أو قمامة ملقاة من داخل ملكى القصور.

وغاص في التاريخ العالمي في قصيدة (مذكرات أحد الروهينجا المسلمين ومغول الصين)، في صراع بين الحق والباطل لا ينقطع مدى الأزمان في كل مكان في مقدمة بسطت صور الظلم وبشاعة الاستعباد والفوضى. الآن:

جاء شتاء المنفى والأحزان

ومغول الصين

أشعل أعداء الله فينا النيران

في "بورما" و "ميانمار" و "تركستان"

أطلال وخرائب ودخان

ثم وصف المأساة في صورة مأساوية بشعة في كنايات متلاحقة واستعارات متعددة تشي بظلام الموقف وضياع الحلم في الاستقرار.

وكأنا نخرج من فوهة القبر

يوم الحشر

أشباحا تائهة ضائعة ذاهلة

ويختتم القصيدة باليأس المطبق الذي لا انفراج له، متأثرا بمعاني القرآن في مثل هذه المواقف:

ويضيع صدى صرختنا خلف الريح
نرحل عنها وسط الأمواج السوداء والأنواء
موج من فوق الموج
وظلام فوق الظلمات
إن ترفع يدرك فلن تبصرها
لا شيء أمامي غير ظلام

ومع هذا التشاؤم السوداوي نراه يبدأ ديوانه بإهداء قيم إلى علماء الأزهر وأدبائه، حصن الأمة وملاذ نجاته.

في مطلع بسؤال شامل وإجابة متسعة تضم جوانب الحب والتقدير لهؤلاء الكواكب النيرة في دنيا العلم، بعلم ودين صحيحين من منابع الوسطية الصحيحة.

سألت قلب الذي أحبكم
ما سر حبه لكم؟ أجابني: أحبكم
لأنكم أسودُنا . . تحمي عرين ديننا
لأنكم نجومنا . . تضيء في سمائنا
لأنكم بلابل تشدو بشعرها لنا
لأنكم فنارنا . . يضيء في بحارنا
يهدي سفينتنا

ويختم الإهداء بتوصيف دور الأزهر الكامن في علمه وتنويره للدنيا بأسرها في كلمات توحي بالتقدير الذي لا يكافأ بالعلم، وإنها بالفداء بالمهج الغالية:

الأزهر الشريف ليس حائطًا وقبة ومئذنة
وإنها بكم.. قد صار ملحمة
على فم التاريخ عبر الأزمنة
وقال قلبي الذي أحبكم
لو أستطيع صغت من دمي لكم
قصائدي: أهديت منها باقة وراية لكم
لأنني أحبكم

وكما بدأ ديوانه حديثًا شجيا عن الدين وأهله متمثلا في علوم الأزهر ورجاله؟

نراه يصر على الختام الهادي إلى السلم والحرية والأمان في نفثه ندية بذكر ميلاد رسول الحرية ﷺ.

في بداية النفثة إعلان وتشويق تاركا المتلقي السباحة في فضاء الخير والصلاح في أجواء الخير التي لا حدود لها:

يوم ميلاد رسولي وحبيبي

وبعد هذا الإعلان الندي الهادي إلى راحة النفس وتوقع الأماني، يعلن عن حجم الحدث الذي لخص التغيير في بناء الأمـــة، وســـعادة الكون:

صحت الدنيا على صبح رطيب
رقـص النـور علـى كـل الـدروب
وأفـاق الكـون مـن ليـل كئيـب
ونفـى الـدهر بـاللحن الطـروب
بعـد أن أغـرق في صـمت رهيـب
وعـــذاب وســـجود ونحيـــب
كســرت أغلالهــا كــل الشــعوب
ومضـت تقـدم إلى أفـق رحيـب

ويعود الشاعر بلفتة فنية رائعة ليختم بسطر البداية، وكان ســؤال الدنيا عن هذا التعبير، فلا يلبث السائل أو المفكر فـــي الســـؤال إلا بالجواب:

يوم ميلاد رسولي وحبيبي

ديوان قيم يستحق الدراسة المطولة، وإننـــي ســـأكتفي بإشـــارات سريعة تنير درب الدارسين، وتدور حول نبضات قلب مبدع يعي كل قواعد الإبداع متسلحًا في ذلك بالموهبة الفسيحة والـــرأي الصـــائب والأمل الذي لا حدود له.

المبحث الثاني
مضامين وصور

نهل شاعرنا مضامينه وصوره من معين بئر سحيق، عميق القعر، عذب المياه، كلما ارتشف منها الصادي ازداد رشفًا وشوقًا؛ لحلاوتها وبديع منبعها المتشابك المتكامل – فمن لغة الأقدمين إلى كلم العارفين، إلى أساطير القصاصين في كل صقع وميدان.

فهي قصيدة "صرخة قادم من الأندلس.

فلمح المشهد الدرامي في مضمونه المأساوي الملطخ بدماء النسب ووشائج القربى، في استهلال إنكاري لواقع أليم أججه الاستفهام المتكرر عن وجود بقايا الأمة التي فيها أمل الخلاص لبقية أخرى، ثم صممت متمثل في الموت والمقبرة الجماعية.

أين أبو زيد سلامة؟
أين بني زيري وزناته؟
أين العرب وأين البربر؟
قد جئت اليوم من الأندلس
من الفردوس المفقود
قد جئت لهم أستنجد
لكن لم أبصر أي أحد
فلقد مات الكل

وهنـــا مقـــبرة الأمـــة

ومن قصة أهل الكهف يلتقط الخيط ليسقطه على أمة نائمـــة فـــي الستينيات وقبل انتصار أكتوبر المجيـــد؟ ليـــوقظ الهمـــم، ويحـــرك المشاعر، ويثير النخوة في معان جذابة وصور براقـــة؟ فهـــي مـــن التاريخ القديم الذي أسقطه على الواقع في محاولة لبعث القوة النائمة المستعدة للتحرير.

وســـــــــيأتي الـــــــــرب
والمـــــوتى ســـــوف يقومـــــون
وسيبصـر كـل العميـان. . نـور الله
فلتنتظـــــــــــــــــــــروه
ولنســـهر في أحضـــان خنـــادق
وعلـــى الأكتـــاف بنـــادق
فســـــــــيأتي الـــــــــرب
ســيهدأ الزلـزال جـدار الكهـف
وســـنخرج منـــه بـــلا خـــوف

فكثرة السينات هنا توحي بأن الأمر مرتقب ولا يعلم مـــداه إلا الله تعالى وبعدها ما يأتي لأمر بالاستعداد للحرب بأخذ أدواتهـــا حتـــى تكون مستحقين لها:

فلنفـــر مـــن كـــل الطرقـــات

طلقـــات . . طلقـــات رصـــاص
ليكـون طريـق الـرب طريـق خـلاص
وإذا مـــــــا دق البـــــــاب
فلنرفـــع صـــوت بنادقنـــا بالإنشـــاد
الوطن الضائع عاد . . الوطن الضائع عاد

كنايات مكلبة باستعـــارات رائعة مثلت المشهد وأوحت بـــالواقع قبل وبعد.

وفـــي معنـــى مـــن معـــاني النبـــل والســـلم يلـــتقط صـــورة (لعبد الله المحصن) الذي سجنه أبو جعفر المنصور، فيأبى الثـــورة حتى في وجه السجان، ويقابل بالسلام:

صاح بها عبدالله المحصن لجلاده
خذ مفتاح سجونك وارحل عنا
لم ارفـــع في وجهـــك ســـيفا
لم أنطـــــــق حرفـــــــا
اتـــــركني واتـــــرك أهلـــــي
أهـــــــــل البيـــــــت

وفي معاني الحب الصافي يصور قصة الصحابي الذي خرج إلى الصحراء ولم يعد بعد أن هام في حب الله وآثر ما عنده علـــى مـــا سواه، يقول:

يحكى أن صحابيا ملأ الحب الرباني فؤاده
خرج إلى الصحراء كموسى يوم الميعاد
يرجو أن يلقى الله. . وينال رضاه

بداية قصصية متمثلة في القص والسرد، لكن الحكي هنا من واقع قصة حقيقية، ثم يصور التلاحق في الهيام داخل جوف الصحراء بلا زاد سوى الشوق والهيام والإيمان:

ومضى دوان وداع لأحد
وبلا قنينة ماء أو زاد
ينظر نحو الأفق
ظمآن يحرقه الشوق

ويصور في كتاباته وتشبيهاته واستعاراته البديعة حالة الهيام والوجد:

تاه بوادي الحيرة
ومضى في وادي الوجد
ووادي الحب
وصل إلى وادي القرب
ورأى نورا عم الأرجاء
رق وثف توارى خلف ضباب
وأندك الجبل وذاب

ويبدع الشاعر في تصوير المفارقة بين الوصول للمأمول وبين أهل ينتظرون في تكثيف للكناية.

وهنالك عند الأفق رأي نهرا ينساب
وعلى حافته أشجار.. أزهار.. أطيان.. وغناء
والأهل أمام الدار
ينتظرون بغير رجاء
من خرج إلى الصحراء وغاب

هذا مشهد تمثيل رائع، أبطاله مختلفو المشارب والأهواء، ويختم بقول العراف لكنه عراف الحقيقة، وليس دجال الجهلاء، قال العراف لهم:

كيف يعود؟
كيف يبوح بما عاين ورآه
من فيض الله
وهو وراء حجاب

ويستلهم الشاعر تراثنا الشعبي من خلال قصة (شهرزاد مع شهريار) في قصيدة شهريار يحادث شهرزاد؛ لكنه يسقطه على العصر الحديث، فالاستهلال استفهامي إنكاري بشيء بكثافة الجرح وحيرة الطب في شفاء المريض:

مـــاذا عنـــدك القلـــب مجـــروح
فالـــــــــــديك يصـــــــــــح
وتمـــــر الليلـــــة بعـــــد الألـــــف
لكـن مـا زال الجـرح بأعمـاقي ينـزق

وتتسع الأحزان، وتتسع الكنايات في ضياع البهجـــة والســـرور في تلاحق مأساوي عجيب! حتى الآن كل أقاصيصل أنستتي

مـــا مســـحت أحزانـــي وحبـــو في
ملاحـــــل ذاك نســـــيت اسمـــــه
قـــد جـــاب بحـــار الـــدنيا الســـبع
ورأى الجـــــــزر المســـــــحورة
لكـــــن مـــــا زال الجـــــرح
بأعمـــــاقي ينـــــزق حتـــــى الآن

ويختم الشاعر ختاما متوازيا مع الواقع المر الأليم، فيه الحســـرة والأمل، فيه اليأس والمطلع للخلاص، وتساعده الكنايـــات الشـــاملة العامة، يقول:

عـــد يـــا ســـلطان إلى القصـــر الآن
فامرأتـــك نامـــت في حضـــن جبـــان
خاتـــك مـــع العبـــد الأســـود
وإذا بـــــالأفق أمـــــامي يســـــود

ورأيـــت الكـــون خـــراب
وهـــــمٌ وســـــراب
القصـــر وأســـوار القلعـــة
والأبـــــراج انهـــــارت
وتمزقـــــت الرايـــــات
حتـــى الماضـــي ومعاركـــه
والتـاج وكـل الأمجـاد . . تلاشـت
لم يبـــق ســـوى الجـــرح
بأعمـــاقي ينـــزق حتـــى الآن

بهذا الختام الحزين يختتم الشاعر نفثته وهي بقدر حـزن الواقـع الممزق الممقوت.

المبحث الثالث
رســـوم لفظـــية ونغمـــات موسيقـــية

لغة الديوان لغة ثرية متفردة؟ رسم بها الشاعر صورًا ولوحـــات فنية بديعة؟ ولهذا أطلقت على التعبير الرسم بالكلمات، لما للكلمـــات من إيحاء وظلال خاصة، فألفاظه قطرات ماء عذب، تقاطرت فـــي حلاوتها فتركت عسلا مصفى في كل لسانٍ ارتشف؟ يبو ذلـــك فـــي ألفاظ قصيدته "لعنة الفراعنة" التي انطلقـــت مـــن أســـطورة قديمـــة متوارثة؟ ليفضح لصوص الواقع المر الذين يسرقون التـــاريخ ولـــم يعبئوا بهذا التراث الخالد:

لم نعرف كيف نصون كنوزك يا بلدي
وسـرقناها . . ماقلنـاه كـذب ورياء
حتّى غاصت أهرامك في الصحراء
وانطفـــأت كـــل نجومـــك
لم نلمح غـير لصوصـك في الطرقـات
وتركنا أعداءك حتى نبشوا قبر تحتمس
صـــلبوا في الشـــارع أحمـــس
لعنـوا آمـون . . لطمـوا كهنـة آتـون
نهبـــوا تـــوت عـــنخ آمـــون
جلـــدوا جثـــة أخنـــاتون

فهي ألفاظ رشيقة مع جدتها وأصالتها، جمعت السهل الماتع والقديم الناصع، فاتحدت جمل ساحرة متقلبة بين الفاعلية والاسمية والخيرية والإنشائية، تقص أخبار موجعة، وأحيانًا أفراحًا واسعة وآمالا لامعة.

وتراها أحيانًا تأمر وتنهى، تحذر وتوبخ وتثير الشجن في قول زيد بن زين العابدين يرد على هشام الخليفة:

إن تقتلني أو تصلبني
أو تحرقني لن تكسرني روحي
وسيأتي بعدي من يأخذ ثأري

وثالثة راقصة تحرك الوجد وسحر اللب بالحجة الدامغة، في قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي:

علمنا ألا نظلم
ألا نأكل أموال الأيتام
علمنا لا نستسلم للضيم
ونهانا عن قول الزور
علمنا أن نقتل آلهة الشر
علمنا ألا نخشى إلا الله
صدقناه آمنا به

وتلك وظائفه المفردة إذا انتظمت في سلك أنيق كحبات اللؤلؤ اليتيم.

وعن تصوير اللوحات، فنراها لوحات فنية متتالية في قطع ساحرة بكل ما يطلبه الرسم الواقعي والخيالي، هامت الألوان بدقة واعية دون شطط، فدق التشبيه وتنوع لاذعًا قامعًا، وهادئًا يانعًا، وتلونت الاستعارات والكنايات بأصباغ معانيها فأصابت مراميها بكل دقة بكر الأمل وتفزع الحامل وتلهب متن كل متحامل.

من معزلة (الحرة) نرى ألفاظا تنشر الرعب وتوقظ المستكين، ولوحة مفزعة باكية تضفي طلال الخوف والفزع:

النار تحرق المدينة

وتصرخ الدماء في الشوارع الحزينة

والرعب يخنق البيوت المستكينة

وسط البكاء والعويل والجنون

ويبرق الذهول في العيون

من هول ما يرون

أشلاء الجثث تسد الطرقات

صار الكل يتامى وأرامل ثكلى محزونات

وصورة أخرى في قصيدة شحاذ في مدينة البندقية أحاطط اللوحة بالمشاهد الماثلة بين فنان صناع متكاملة الأصباغ والأصوات

والحركات كأنها أشخاص وأشجار وأوتار حية نابضة من دقة الريشة الماهرة والتي شيدت البناء، يقول:

وقفت في الطريق ضائعًا مشردًا
جلست باكيًا وجائعًا ومجهدًا
مددت للماترين يدا
لعل بعضهم يقيم لي أودا
فما رأيت واحدًا يمد لي يدا
تباعدوا عني كأنني أجرب تمددا

ثم بعد هذا الريم، يقول:

صرخت داخلي لكن صوتي المخنوق قد تبددا
يا أيها المجفون. . أين المجوفون
ويلكم حياتكم سدى.. حياتكم سدى

وتعاونت الموسيقى في رسم اللغة والأسلوب والصورة؛ فعزف الشاعر على أوتار كثيرة؛ تنوعت في لحونها، لكنها تجمعت في آلة واحدة، ضربت بكل ألوانها المتشابكة من تفعيلات أحادية وأسطر مجاورة متكررة في أحيان كثيرة، بل وأشطر الأبيات الرئيسية المتسامية حتى يخيل للمتصفح المتعجل أنها مختلفة في الشكل واللون، فإذا تأمل فيها وجدها تنبع من معين رقراق تحقيق طرفها اللحون في صفاء وصخب؛ صفاء المقصد وصخب الإرادة الهادرة نحو التنبيه والإيقاظ لكل فؤاد كليل وصدر ذليل وخبتة كسول:

في قصيدة (شمشون ودليلة) نلمح، ما أشرت إليه:

في داخـــل أعمـــاقي شمشـــون جبـــار
واليـــــــوم قـــــــد انهـــــــار
لم يهزمـــــه غـــــير دليلـــــه.. خانتـــــه
ســــــــــــحقته بجيلــــــــــــة
فالضـعف الخـائن يهـزم قـوتي بقوتـه المجهولـة
شمشـــــــــــــــــــــــــــون
اســــــــتيقظ يـــــــا شمشـــــــون
فدليلـــه تحلـــق شـــعرك يـــا مســـكين
لكـــــــني حـــــــين صـــــــحوت
كانـــت قـــد فقـــأت عينيـــه جلـــدتني
قـــادتني مغلـــول الأيـــدي للســـجان
وأنـــــا كـــــم قـــــدمت لهـــــا..
في معبـــــــد حتـــــــى القربـــــــان
لكـــني الآن.. أهـــدم جـــدران المعبـــد

أثرت أن أكتب القصيدة كاملة برسومها المتناثرة عبر أوزان تطول وتعقد في بحر واحد هو المتدارك، والجملة كلمة أو سطر يطول ويقصر، لكن الوتر واحد والنغم مختلف يجتمع ليعطي سيمفونية جبارة هادرة من أول دفعة إلى آخرها، وتلك براعة العازف بلحنه الكلمي.

ودفعة شعورية أخرى في قصيدته (ماذا قال لقمان لابنه قبل أن يعظه).

وهي استلهام ديني؟ لكنها واقعية ممتدة عبر العصور والأجيال، دفعة شعورية من قلب لقلب توهجت بالنضج وتناولت طرق المحبة والمودة بين أب شاخ عمره وابن في عمر الزهور المتفتحة، صب فيها الشاعر خوفه من أشواك الشرود والشرار الذين نقض بهم الحياة، وتسير بهم السفن عكس تيار الرضا والعدالة، وتموج تلك النصائح بالثبات كثبات الراء الساكنة أواخر اللحون في التعليلات المتشابهة الراسمة بأمثال الصدق والإخلاص والمحبة.

مطلع ندائي حان وختام إخباري صامد، يقول:

يا حُبَّا يتدفق في قلبي كالأمطار
تغسل وجه الصبار.. في يوم حار
مع أنك في عمر الأزهار
وأنا في عمر شيوخ الأشجار
إلا أن دروب حياتي وحياتك يملؤها الأشرار
بالشوك وبالأكدارْ
أتخاصمنا الأقدارْ؟
ولماذا لا تأتي الريح إلى السفن بما تشتهي التجارْ
وسألت العراق عن الأسرار
فأجاب بأناطي إصرار
نسبح ضد التيار.. نسبح ضد التيار

أي إبداع هذا، من مطلع ومضمون ولغة وأسلوب وحوار واستلهام للتراث ونغم حي نابض، إنه قلب الشاعر الذي يستشرق نهايات أمته، ويرجو لها كل خير وسلام.

وهممت أن أترك القلم، فإذا به يجذبني نحو تفعيلة الرجز في قصيدة فرعونية قديمة (رسالة على رأس جندي فرعوني في مهمة سرية).

استوحاها من نظام الفراعين الذين تفننوا في كل شيء حتى في إرسال رسائل للجيوش دون علم حامل الرسالة نفسه، فيحلق رأس الجندي، وتكتب عليها الرسالة دون أن يدري:

أمرت أن أسير صامتًا
وأن أظل سائرًا
وحدي لا رفيق
ودون مرشد يدلني على الطريق
وتهت في الصحراء دون ماء
وسطروا برأسي الحزينة
رسالة خفية
بأحرف سرية
ولست أدري كنهها
لأنني لا أعرف القراءة
لا أستطيع أن أطل نحوها
لأنها بعيدة
هناك فوق ناظري
وقيل لي عليك أن تبلغ الرسالة

وحـــــــين ســـــــألتهم
لمـــــــن؟.. لمـــــــن؟!!
وأيـــــــن؟.. أيـــــــن؟!!
أمـــــرت أن أســـــير صـــــامتاً
وأن أظـــــــل ســـــــائرا
فمـــن يـــدلني علـــى الطريـــق
مـــــن يقـــــرأ الرســـــالة..

تناثرت تفعيلات الرجز بألوان مختلفة في الطول والقصر والإثبات والحذف؛ كما تناثرت الأسئلة في رأس هذا الجندي عبر كلمات الرسالة لا تجمعها سوى المضمون وعللت من قيود القاطمة مثلما تخللت أوصال حاملها داخل الصحراء، ولم يجمعها سوى المشقة التي توصله القارئ يفك رموز عنته وشقائه، فكان الختام سؤالا مفتوحًا لصحراء نية يرجو الخروج منها.

تلك لمحات سريعة عن ديوان "ثورة المختار" قرأت فيه الكلمة والجملة وتمتعت بالرسم والنغم، وأدعو من يمعن أكثر في قراءته وإخراج ما تركت من درر لم تلتقط عيناي من العجالة.

والله الهادي إلى سواء السبيل

الأستاذ الدكتور

محمد محمد الغرباوي

عميد الكلية، أستاذ الأدب والنقد فيها